ما وسعه الاجتهاد ، ثم يحكمون على ما وصل إليه أنه حق ، وآخر يجتهد ويقررون أنه باطل ؛ لأن الله لو أراده على لون واحد لقاله ، إنما تركه محتملاً للآراء .

إذن : أراد سبحانه أن تكون هذه الآراء لأن الإنسان كما هو محكوم بقهر فى كثير من الكونيات وله اختيار فى بعض الأمور ، كذلك الحال فى التكليف ، فهو مقهور فى الأصول التى لو حاد عنها يفسد العالم ، ومختار فى أمور أخرى يصحّ فِعْلها ويصحّ تَرْكها .

يقول تعالى فى هذا المنهج :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ (٧٧) ﴾

النداء فى ضَرْب المثل السابق[1] كان للناس كافّة ؛ لأنه يريد أنْ يلفت عُبَّاد الأصنام إلى هذا المثَل ، ويُسْمعهم إياه ، أمّا هنا فالكلام عن منهج ودستور مُوجَّه ، خاصّة إلى الذين آمنوا ، لأنه لا يُكلَّف بالحكم إلا مَنْ آمن به ، أما مَنْ كفر فليس أهْلاً لحمل هذه الأمانة ؛ لذلك تركه ولم ينظم له حركة حياته . وكما قلنا فى رجل المرور أنه يساعد مَن استعان به ووثق فيه ، فيدلّه ويرشده ، أما مَنْ شكَّ فى كلامه وقلّل من شأنه يتركه يضل فى مفترق الطرق .

فإذا ناداك ربك بما يكلفك به ، فاعلم أن الجهة مُنفكّة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمنوا آمنُوا .. (١٣٦) ﴾ [النساء]

وقد اعترض على أسلوب القرآن فى هذه الآية بعض الذين

---

(١) يقصد قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج]

يأخذون الآيات على ظاهرها ، يقولون : كيف يخاطبهم بيأيها الذين آمنوا ثم يقول : آمنوا ، كيف وهم يؤمنون بالفعل ؟

قالوا : المراد يا أيها الذين آمنوا قبل سماع الحكم الجديد ظلُّوا على إيمانكم في الحكم الجديد ، واستمرّوا على إيمانكم ؛ لذلك إذا طلبتَ شيئاً ممَّنْ هو موصوف به فاعلم أن المراد الدوام عليه .

كما أن هناك فَرْقاً بين الإيمان بالحكم وبين تنفيذ الحكم ، فقد تؤمن بالحكم أنه من الله ولا تشكّ فيه ولا تعترض عليه ، لكنك لا تنفذه وتعصاه ، فمثلاً في الحج يقول تعالى : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ..﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران] الذي لله تعالى على عباده أنْ يحجوا البيت ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران] وهذا شرط ضروري ، فلا تكليفَ بلا استطاعة ، ثم يقول : ﴿وَمَن كَفَرَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران]

فهل يعني هذا أن مَنْ لم يحج فهو كافر ؟

قالوا : لا ، لأن المراد : لله على الناس حكم يعتقده المؤمن ، بأن لله على الناس حج البيت ، فمن اعتقد هذا الاعتقاد فهو مؤمن ، أما كونه ينفذه أو لا ينفذه هذه مسألة أخرى .

ثم يبدأ أول ما يبدأ في التكليف بمسألة الصلاة : ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ..﴿٧٧﴾﴾ [الحج] لقد جاء الرسل من عند الله بتكاليف كثيرة ، لكن خَصَّ هنا الصلاة لأنها التكليف الذي يتكرر كل يوم خمس مرات ، أما بقية التكاليف فهي موسمية : فالصوم شهر في العام كله ، والحج مرة في العمر كله لمن استطاع ، والزكاة عند خروج المحصول لمن يملك النصاب أو عند حلول الحَوْل .

إذن : تختلف فريضة الصلاة عن باقي الفرائض ؛ لذلك خَصَّها

رسول الله ﷺ في قوله : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمَنْ تركها فقد كفر »[1] .

ويقول : « الصلاة عماد الدين »[2] .

وخصَّها الحق - تبارك وتعالى - بظرف تشريعي خاص ، حيث فُرِضت الصلاة بالمباشرة ، وفُرِضت باقى الفرائض بالوحى .

وضربنا لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى - قلنا : إن رئيس العمل يمكن أن يرسل لك ورقة يقول : افعل كذا وكذا ، فإنْ كان أمراً هاماً اتصل بك تليفونياً ، وأخبرك بما يريد لأهميته ، فإنْ كان الأمر أهم من ذلك وجاء من جهة أعلى يقول لك : تعال عندى لأمر هام ، ويُكلِّفك به مباشرة ، وكذلك على حسب الأهمية يوجد ظرف التشريع .

فالصلاة لم تأت بالوحى كباقى الفرائض ، إنما جاءت مباشرة من المُوحى سبحانه وتعالى ؛ لأنها ستكون صلة بين العبد وربه ، فشاء أن يُنزِّهَهَا حتى من هذه الواسطة ، ثم ميَّزها على غيرها من التكاليف ، فجعلها الفريضة التى لا تسقط عن المسلم بحال أبداً . فقد تكون فقيراً فلا تلزمك الزكاة ، وغير مستطيع فلا يلزمك حج ، ومريض أو مسافر فلا يلزمك صوم .

أما الصلاة فلا يُسقطها عنك شيء من هذا كله ، فإنْ كنت غير قادر على القيام فلك أنْ تُصلِّى قاعداً أو مضطجعاً أو راقداً ، تشير

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٦٢١) ، والنسائى فى سننه (١/٢٣١) من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه . قال الترمذى : حديث حسن صحيح غريب .

(٢) قال الحافظ العراقى فى تخريجه للإحياء (١/٢٤٧) : « رواه البيهقى فى الشُّعَب بسند ضعَّفه من حديث عمر » وقال الملا على القارى فى « الأسرار المرفوعة » ( حديث ٥٧٨ ) قال ابن الصلاح فى مشكل الوسيط : إنه غير معروف . وقال النووى فى التنقيح : إنه منكر باطل ، لكن رواه الديلمى عن على كما ذكره السيوطى فى الدرر المنتثرة (ح ٢٧٩) .

بطرفك لركوعك وسجودك ، ولو حتى تجرى أفعال الصلاة على قلبك ، المهم أن تظلّ ذاكراً لربك متصلاً به ، لا يمر عليك وقت إلا وهو سبحانه فى بالك .

وقلنا : إنّ ذكر الله فى الأذان والإقامة والصلاة ذكْر دائم فى كل الوقت لا ينقطع أبداً ، فحين تصلىّ أنت الصبح مثلاً غيرك يصلى الظهر ، وحين تركع غيرك يسجد ، وحين تقول : بسم الله الرحمن الرحيم . غيرك يقول : الحمد لله رب العالمين .. الخ .

فهى عبادة متداخلة دائمة لا تنقطع أبداً ؛ لذلك يقول أحد أهل المعرفة مخاطباً الزمن : يا زمن فيك كل الزمن . يعنى : فى كل جزئية من الزمن الزمن كله ، كأنه قال : يا ظُهْر ، وفيك العصر ، وفيك المغرب ، وفيك العشاء . وهكذا العالم كله يدور بعبادة لله لا تنتهى .

وذكر من الصلاة الركوع والسجود ؛ لأنهما أظهر أعمال الصلاة ، لكن الركوع والسجود حركات يؤديها المؤمن المخلص ، ويؤديها المنافق ، وقد كان المنافقون أسبق الناس إلى الصفوف الأولى ؛ لذلك أراد الحق سبحانه أنْ يُميِّز هذا من هذا ، فقال : ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ..(٧٧)﴾ [الحج]

فليست العبرة فى حركات الركوع والسجود ، إنما العبرة فى التوجّه بها إلى الله ، وإخلاص النية فيها لله ، وإلا أصبحت الصلاة مجرد حركات لا تعدو أن تكون تمارين رياضية كما يحلو للبعض أن يقول : الصلاة فيها تمارين رياضية تُحرِّك كل أجزاء الجسم ، نعم هى كما تقولون رياضة ، لكنها ليست عبادة ، العبادة أن تؤديها لأن الله تعالى أمرك بها .

ثم يقول تعالى : ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧)﴾ [الحج]

والخير كلمة عامة تشمل كل أوامر التكليف ، لكن جاءت مع الصلاة على سبيل الإجمال ، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، فالخير - إذن - كلمة جامعة لكل ما تؤديه وظائف المناهج من خير المجتمع ؛ لأن المنهج ما جاء إلا لينظم حركة الحياة تنظيماً يتعاون ويتساند لا يتعاند ، فإنْ جاء الأمر على هذه الصورة سَعِد المجتمع بأسْره .

ولا تنْسَ أن المنهج حين يُضيِّق عليك ويُقيِّد حركتك يفعل ذلك لصالحك أنت ، وأنت المستفيد من تقييد الحركة ؛ لأن ربك قيَّد حركتك وضيَّق عليك حتى لا تُلحق الشر بالآخرين ، وفي الوقت نفسه ضيَّق على الآخرين جميعاً أن يتحركوا بالشر ناحيتك ، وأنت واحد وهم كثير ، فمن أجل تقييد حركتك قيَّد لك حركة الناس جميعاً ، فمَن الكاسب في هذه المسألة .

الشرع قال لك : لا تسرق وأنت واحد وقال للناس جميعاً : لا تسرقوا منه ، وقال لك : غُضَّ بصرك عن محارم الغير وأنت واحد . وقال لكل غير : غُضُّوا أبصاركم عن محارم فلان ، فكل تكليف من الله للخَلْق يعود عليك .

فالمعنى : ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ ۝٧٧﴾ [الحج] أي : الذي لا يأتي منه فساد أبداً ، وما دامت الحركات صادرة عن مراد لهوى واحد فإنها تتساند وتتعاون ، فإنْ كان لك هوى ولغيرك هوى تصادمتْ الأهواء وتعاندت ، والخير : كل ما تأمر به التكاليف المنهجية الشرعية من الحق تبارك وتعالى .

ثم يقول سبحانه : ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٧٧﴾ [الحج] لكن ، أين سيكون هذا الفلاح : في الدنيا أم في الآخرة ؟

الفلاح يكون في الدنيا لمن قام بشرع الله والتزم منهجه وفعل

الخير ، فالفلاح ثمرة طبيعية لمنهج الله فى أىّ مجتمع يتحرك أفراده فى اتجاه الخير لهم وللغير ، مجتمع يعمل بقول رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[1] وعندها لن ترى فى المجتمع تزاحماً ولا تنافراً ولا ظلماً ولا رشوة .. الخ هذا الفلاح فى الدنيا ، ثم يأتى زيادة على فلاح الدنيا فلاح الآخرة .

إذن : لا تظنوا التكاليف الشرعية عبْثاً عليكم ؛ لأنها فى صالحكم فى الدنيا ، وبها فلاح دنياكم ، ثم يكون ثوابها فى الآخرة مَحْض الفضل من الله .

وقد نبهنا النبى ﷺ إلى هذه المسألة فقال : « لا يدخل أحدكم الجنة بعمله قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أنْ يتغمّدنى الله برحمته »[2] ذلك لأن الإنسان يفعل الخير فى الدنيا لصالحه وصالح دنياه التى يعيشها ، ثم ينال الثواب عليها فى الآخرة من فضل الله كما قال تعالى : ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [النساء]

وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحج] نعرف أن لعل أداة للترجى ، وهو درجات بعضها أرْجى من بعض ، فمثلاً حين تقول : لعل فلاناً يعطيك ، فأنت ترجو غيرك ولا تضمن عطاءه ، فإنْ قلت : لعلّى أعطيك . فالرجاء - إذن - فى يدك ، فهذه أرجى من سابقتها ، لكن ما زلنا أنا وأنت متساويين ، وربما أعطيك أولاً ، إنما حين تقول : لعل الله يعطيك فقد رجوْتَ الله ، فهذه أرجى من سابقتها ، فإذا قال الله تعالى بذاته : لعلى أعطيك فهذا أقوى درجات الرجاء وآكدها ؛ لأن الوعد من الله والرجاء فيه سبحانه لا يخيب .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، ومسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾

معنى ﴿ حَقَّ جِهَادِهِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الحج] كالذى قلناه فى ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الحج] لأن الجهاد أيضاً يحتاج إلى إخلاص ، وأنْ تجعل الله فى بالك ، فربما خرجتَ لمجرد أن تدفع اللوم عن نفسك وحملتَ السلاح فعلاً ودخلت المعركة ، لكن ما فى بالك أنها لله وما فى بالك إعلاء كلمة الله ، كالذى يقاتل للشهرة وليرى الناس مكانته ، أو يقاتل طمعاً فى الغنائم ، أو لأنه مغتاظ من العدو وبينه وبينه ثأر ، ويريد أن ينتقم منه ، هذه وغيرها أمور تُخرِج القتال عن هدفه وتُفرغه من محتواه .

لذلك لما سئل سيدنا رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتلُ ليُرى مكانه ، فمَنْ فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله »[1] وهذا هو حق الجهاد ، وأنت فيه حكَم على نفسك ، لأن ميزان ذلك فى يدك .

(١) متفق عليه : أخرجه البخارى فى صحيحه (١٢٣) ، ومسلم فى صحيحه (١٩٠٤) عن أبى موسى الأشعرى . .

وقد تسأل : ولماذا الجهاد ؟ قالوا : لأنك إذا انتفعتَ بالمنهج تطبيقاً له بعد التحقيق الذى أتى به الرسل تنفع نفسك ، لكن ربك - عز وجل - يريد أنْ يُشيع النفع لمن معك أيضاً ، وهذا لا يتأتّى إلا بالجهاد بالنفس أو المال أو أىّ شىء محبوب ، وإلا فكيف ستربح الصفقة التى قال الله تعالى عنها : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ..(١١١)﴾ [التوبة]

وكما أن للجنود فى ساحة القتال مهمة ، كذلك لمن قعد ولم يخرج مهمة : الجندى حين يقتحم الأهوال والمخاطر ويُعرِّض نفسه للموت ، فهذا يعنى أنه ما دخل المعركة وما عرَّض نفسه للقتل إلا وهو واثق تمام الثقة ، أن ما يذهب إليه بالقتل خير مما يناله بالجُبْن ، وهذا يشجع الآخرين ويحثّهم على القتال .

لذلك ، فى غزوة بدر لما سمع الصحابى كلام رسول الله ﷺ عن أجر الشهيد وكان فى فمه تمرة يمصُّها ، فقال : يا رسول الله ، أليس بينى وبين الجنة إلا أنْ أُقتل فى سبيل الله ؟ قال : نعم ، فألقى التمرة من فيه وخرج لتوِّه إلى الجهاد[1] لأنه واثق تمام الثقة أن ما سيذهب إليه بالشهادة خير مما ترك .

أما الذين بَقَوْا ولم يخرجوا ، فمهمتهم أن يحملوا المنهج ، وأنْ يحققوه ، وإلا لو خرج الجميع إلى القتال واستشهدوا جميعاً ، فمَنْ يحمل منهج الله وينشره ؟

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال : قال رجل : أين أنا يا رسول الله إن قُتلت ؟ قال : فى الجنة . فألقى تمرات كُنّ فى يده . ثم قاتل حتى قُتل». وفى حديث سويد : قال رجل للنبى ﷺ يوم أحد . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٨٩٩) كتاب الإمارة . قال ابن حجر فى الفتح (٧/٣٥٤) : « لم أقف على اسم الرجل ، وزعم ابن بشكوال أنه عمير بن الحمام وسبقه إلى ذلك الخطيب واحتج بما أخرجه مسلم من حديث أنس . قلت : لكن وقع التصريح فى حديث أنس أن ذلك كان يوم بدر » .

وجاءت كلمة الجهاد عامة لتشمل كل أنواع الجهاد ، فإذا ما أثمر الجهاد ثمرته وتغلبنا على الكفر فلم يَعُدْ هناك كفار ، أو خَلَّوْا طريق دعوتنا وتركونا ، وأحبوا أنْ يعيشوا في بلادنا أهل ذمة ، فلا داعى - إذن - للقتال ، ويتحول الجهاد إلى ميدان آخر هو جهاد النفس .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ ..(٧٨)﴾ [الحج] يعنى : اختاركم واصطفاكم لتكونوا خير أمة أُخرجت للناس ، وثمن هذا الاجتباء أن نكون أهلاً له ، وعلى مستوى مسئوليته ، وأنْ نحقق ما أراده الله منّا .

كما ننصح جماعة من أهل الدعوة الذين حملوا رايتها ، نقول لهم : لقد اختاركم الله ، فكونوا أهْلاً لهذا الاختيار ، واجعلوا كلامه تعالى في محلّه .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ..(٧٨)﴾ [الحج] يعنى : ما اجتباكم ليُعنتكم ، أو ليُضيِّق عليكم ، أو ليُعسِّر عليكم الأمور ، إنما جعَل الأمر كله يُسْر ، وشرعه على قَدْر الاستطاعة ، ورخَّص لكم ما يُخفِّف عنكم ، ويُذهب عنكم الحرج والضيق ، فمَنْ لم يستطع القيام صلى قاعداً ، ومَنْ كان مريضاً أفطر ، والفقير لا زكاة عليه ولا حج .. الخ .

كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ ..(٢٢٠)﴾ [البقرة] لكنه سبحانه ما أعنتكم ولا ضيَّق عليكم ، وما كلَّفكم إلا ما تستطيعون القيام به .

وقوله تعالى : ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ (٧٨)﴾ [الحج] كلمة ( ملة ) جاءت هكذا بالنصب ، لأنها مفعول به لفعل تقديره : ( الزموا ) ملة أبيكم إبراهيم ؛ لأنكم دعوته حين قال : ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ..(١٢٨)﴾ [البقرة]

ومن دعوة إبراهيم عليه السلام : ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ .. (١٢٩)﴾ [البقرة] لذلك كان النبى ﷺ يقول : « أنا دعوة أبى إبراهيم ، وبُشْرى عيسى »[(١)] .

يعني : من ذريته وذرية ولده إسماعيل ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا .. (١٢٨)﴾ [البقرة] أعطنا التكاليف ، وكأنه مُتشوِّق إلى تكاليف الله ، وهل يشتاق الإنسان للتكليف إنْ كان فيه ضيق أو مشقة ؟

وكذلك كان صحابة النبى ﷺ يعشقون تكاليف الإسلام ، ويسألون عنها رسول الله رغم قوله لهم : « ذرونى ما تركتكم »[(٢)] إلا أنهم كانوا يسألون عن أمور الدين ليبنوا حياتهم الجديدة ، لا على ما كانت الجاهلية تفعله ، بل على ما أمر به الإسلام .

ولنا ملْحظ فى قوله تعالى : ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ .. (٧٨)﴾ [الحج] فالخطاب هنا لأمة الدعوة ، ولأمة الإجابة ، وهل أمة الإسلام كلها من ذرية إبراهيم حتى يقول ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ .. (٧٨)﴾ [الحج] ؟

نقول : الإسلام انقياد عَقَدىٌّ للجميع ، وفى أمة الإسلام مَنْ ليس من ذرية إبراهيم ، لكن إبراهيم عليه السلام أبٌ لرسول الله محمد ﷺ ، والرسول أب لكل مَنْ آمن به ؛ لأن أبوة الرسول أبوة عمل واتباع ، كما جاء فى قول الله تعالى فى قصة نوح عن ابنه : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ .. (٤٦)﴾ [هود]

---

(١) قال أبو أمامة : قلت يا نبى الله ما كان أول بدء أمرك ؟ قال : دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمى أنه يخرج منهما نور أضاءت منها قصور الشام . أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٦٢) .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٢٤٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : « ذرونى ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، ما نهيتكم عنه فانتهوا ، وما أمرتكم فائتوا منه ما استطعتم » .

ولما كان النبى ﷺ أباً لكل مَنْ آمن به سمَّى الله زوجاته أمهات للمؤمنين ، فقال سبحانه : ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ⟨٦⟩﴾ [الأحزاب]

وما دامت الأزواج أمهات ، فالزوج أب ، وبناءً على هذه الصلة يكون إبراهيم عليه السلام أباً لأمة الإسلام ، وإنْ كان فيهم مَنْ ليس من سلالته .

ونجد البعض ممَّنْ يحبون الاعتراض على كلام الله يقولون فى مسألة أبوة الرسول لأمته : لكن القرآن قال غير ذلك ، قال فى قصة زيد بن حارثة : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ.. ⟨٤٠⟩﴾ [الأحزاب] فنفى أن يكون محمد أباً لأحد ، وفى هذا ما يناقض كلامكم .

نقول : لو فهمتم عن الله ما اعترضتُم على كلامه ، فالله يقول : ما كان محمد أباً لأحدكم ، بل هو أب للجميع ، فالمنفىّ أن يكون رسول الله أباً لواحد ، لا أن يكون أباً لجميع أمته . وقال بعدها : ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ.. ⟨٤٠⟩﴾ [الأحزاب] وما دام رسول الله ، فهو أب للكل .

ثم يقول تعالى عن إبراهيم عليه السلام : ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ.. ⟨٧٨⟩﴾ [الحج] يعنى : إبراهيم عليه السلام سماكم المسلمين ، فكان هذه مسألة واضحة وأمْر معروف أنكم مسلمون منذ إبراهيم عليه السلام : ﴿وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ.. ⟨٧٨⟩﴾ [الحج]

وفى موضع آخر يحدث تقديم وتأخير ، فيقول سبحانه : ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ⟨١٤٣⟩﴾ [البقرة]

لماذا ؟ قالوا : لأن رسول الله بلَّغ رسالة الله ، وأشهد الله على ذلك حين قال : « اللهم قد بلغت ، اللهم فاشهد »[1] اشهد أنِّى بلغتُ ، وهو ﷺ يريد من أمته أن يكون كل شخص فيها حاملاً لهذه الرسالة ، مُبلِّغاً لها حتى يسمع كلام الرسول مَنْ لم يحضره ولم يَرَهُ ، وهكذا يكون الرسول شهيداً على مَنْ آمن به ، ومَنْ آمن شهيداً على مَنْ بلَّغه .

لذلك من شرف أمة محمد أولاً أنه لا يأتى بعده رسول ؛ لأنهم مأمونون على منهج الله ، وكأن الخير لا ينطفىء فيهم أبداً . وقلنا : إن الرسل لا يأتون إلا بعد أنْ يعُمَّ الفساد ، ويفقد الناس المناعة الطبيعية التى تحجزهم عن الشر ، وكذلك يفقدها المجتمع كله فلا ينهى أحد أحداً عن شر ؛ عندها يتدخل الحق سبحانه برسول ومعجزة جديدة ليُصلح ما فسد .

فختام الرسالات بمحمد ﷺ شهادة أن الخير لا ينقطع من أمته أبداً ، ومهما انحرف الناس سيبقى جماعة على الجادة يحملون المنهج ويتمسكون به ويكونون قدوة لغيرهم . لذلك حدَّد رسول الله هذه المسألة فقال : « الخير فىَّ حصراً ، وفى أمتى نثراً » فالخير كله والكمال كله فى شخص رسول الله ، ومنثور فى أمته .

ثم يعود السياق إلى الأمر بالصلاة : ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ..(٧٨) ﴾ [الحج] لأنها الفريضة الملازمة للمؤمن ، وفيها إعلاء الولاء المكرر فى اليوم خمس مرات ، وبها يستمر ذكْر الله على مدى

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١٧٣٩) فى خطبة الوداع من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أنه ﷺ قال : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، فى بلدكم هذا ، فى شهركم هذا » .

الزمن كله لا ينقطع أبداً فى لحظة من لحظات الزمن حين تنظر إلى العالم كله ، وتضم بعضه إلى بعض .

والمتأمل فى الزمن بالنسبة للحق - تبارك وتعالى - يجده دائماً لا ينقطع ، فاليوم مثلاً عندنا أربع وعشرون ساعة ، واليوم عند الله ألف سنة مما تعدُّون ، واليوم فى القيامة خمسون ألف سنة ، وهناك يوم اسمه يوم الآن أى : اللحظة التى نحن فيها ، وهو يوم الله الذى قال عنه : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الرحمن] لذلك يقول : ما شغل ربك الآن وقد صَحَّ أنَّ القلم قد جَفَّ ؟ قال : « أمور يبديها ولا يبتديها ، يرفع أقواماً ، ويضع آخرين »[1] .

فيوم الآن يوم عام ، لا هو يوم مصر ، ولا يوم سوريا ، ولا يوم اليابان إذن : فى كل لحظة يبدأ لله يوم وينتهى يوم ، فيومه تعالى مستمر لا ينقطع .

ونقرأ فى الحديث النبوى الشريف : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مُسِيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مُسِيء الليل »[2] .

نهار مَنْ ؟ وليل مَنْ ؟ فالنهار والليل فى الزمن دائم لا ينقطع ، وفى كل لحظة من لحظات الزمن ينتهى يوم ويبدأ يوم ، وينتهى ليل ويبدأ ليل . إذن : فالله تعالى يده مبسوطة دائماً لا يقبضها أبداً ، كما

---

(١) عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الرحمن] قال : « من شأنه أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين » . أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة (١/١٢٩) وابن ماجه فى سننه (٢٠٢) ، وأبو نعيم فى الحلية (٥/٢٥٢) وأبو الشيخ فى العظمة (ح ١٥٠ ) .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٣٩٥ ، ٤٠٤) ومسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

قال سبحانه : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ (٦٤) ﴾ [المائدة]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ (٧٨) ﴾ [الحج] الجئوا إليه في الشدائد ، وهذا يعني أنكم ستُواجهون وتُضطهدون ، فما من حامل منهج لله إلا اضطُهد ، فلا يؤثر فيكم هذا ولا يفُتُّ في عَضُدكم ، واجعلوا الله ملجأكم ومعتصمكم في كل شدة تداهمكم ، كما قال سبحانه : ﴿ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ (٤٣) ﴾ [هود]

واعتصامكم بالله أمر لا تأتون إليه بأنفسكم إنما ﴿ هُوَ مَوْلاكُمْ (٧٨) ﴾ [الحج] يعني : المتولّي لشأنكم ، وما دام هو سبحانه مولاكم ﴿ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨) ﴾ [الحج]


سورة المؤمنون

